الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

الأستاذ محمود الخفيف

— ٢ —

بين عهدين : منشأ البيوريتانية

وما ذلك المذهب الذى جر على أتباعه كراهة مخالفيهم زمنا ، والذى قدر له آخر الأمر أن يظفر بخصومه جميعا ويسيطر على البلاد حقبة من الزمن ؟

إذا أردنا أن نعرف كيف نشأت البيوريتانية فى إنجلترة ، وجب أن نرجع إلى تلك الحركة التى انبعثت فى أوروبا فى أوائل القرن السادس عشر ، والتى اصطلح المؤرخون على تسميتها الإصلاح الدينى ، فى هذه الحركة الإصلاحية أرومة البيوريتانية ، على أن نراعى فى نظرنا إلى حركة الإصلاح الدينى مشاعر الإنجليز التى هى نتيجة ما أحدثته بيئتهم من أثر فى ميولهم ومزاجهم وفلسفة حياتهم ؛ لنتبين كيف استجاب فريق منهم لدعوة الإصلاح ، وسوف نرى من ذلك أن استجابة هذا الفريق على نحو اختصوا به هو روح البيوريتانية ؛ فما كانت البيوريتانية فى إنجلترة إلا صورة معينة من صور الإصلاح الدينى العام الذى شملت دعوته أوروبا فى النصف الأول من القرن السادس عشر .

كانت هذه الحركة الإصلاحية ثمرة من ثمار النهضة الأوروبية العامة ومظهرا من مظاهرها ، فقد نفذ نور النهضة إلى كل ركن من أركان الحياة ومنها الدين ؛ وما كان لوثر بطل الدعوة الإصلاحية فى ألمانيا وأول رجل تحدى البابوية إلا معبرا فى الواقع عن معان وآمال كانت تهجس فى نفوس كثير من المفكرين غيره ، وإنما كان له فضل البدء والسبق فى مضمار الجهاد ، وكان بدء دعوته سنة ١٥١٧ .

وكانت دعوة لوثر فى جوهرها ثورة على دعوى البابوية أنها تحكم مفوضة من الله فى أمور الدين والدنيا ، وعلى امتيازات القساوسة وأطماعهم ، وعلى ما ورثته المسيحية من مظاهر الوثنية القديمة ؛ فهى من ناحية وثبة على سلطان الكنيسة ، ومن ناحية أخرى رغبة فى العودة بالدين إلى جوهره الخالص من شوائب البدع والضلالات ...

رأى لوثر أن فى وسع كل مؤمن أن يتصل بربه مباشرة لا عن طريق قسيس كما تزعم الكنيسة ، بل إن فى وسع كل امرىء أن يكون قسيسا إذا أخلص قلبه لله . وأنكر لوثر عقيدة الكنيسة فى العشاء الربانى إنكارا شديدا ، فما يقبل عقله أن صلاة القسيس لدى قربان من الخبز والنبيذ على المذبح تحيله فعلا إلى مادة المسيح نفسه لحما ودما . وطعن لوثر أشد الطعن على زعم البابا أنه يملك الغفران والحرمان ، وسخر أعظم السخرية من بيع الكنيسة صكوكا تمحو الذنوب والآثام . وخطا لوثر خطوة إيجابية فترجم الإنجيل إلى الألمانية ، وطلب إلى الناس أن يكون مصدرهم الإنجيل وحده لا تعاليم الكنيسة . وتداول الناس قراءة الكتاب المقدس بأنفسهم ولم يأخذوه عن القساوسة وشاع فيهم هذا الكتاب عامتهم وخاصتهم بفضل ما استحدث من وسائل الطباعة فرأوا مبلغ ما دخل على الدين من زيف ، وعجب الناس إذ وجدوا فى الإنجيل أن القديس بطرس نفسه لم يعصم من الخطأ وأنه أنب على أخطائه . وإذا كان هذا شأن بطرس القديس فما بال

رجال الدين ، وقد بعدوا عن المسيح وعهده هذا البعد الزمنى ، يزعمون العصمة لأنفسهم من الأخطاء ؟

وأمعن لوثر فى إظهار مبلغ ما صار إليه رجال الدين من إقبال على الدنيا وبعد عن الزهد ، فما يهم الرجل منهم إلا جمع الهبات والصدقات ، وإنهم ليديرون الأراضى الموقوفة على الكنيسة منذ الأقطاع ، ويشغلون أنفسهم بأمور دنيوية بحتة ، ويتدخلون فى الشؤون السياسية يطمعون أن تكون لهم سلطة كما للأمراء سلطة ، حتى لقد نسوا رسالتهم الروحية ولم يبق لهم من الدين إلا مظهر يتجلى فى ملابسهم وفيما يشخصون فيه من طقوس الأدعية والصلوات وما إليها مما لا يعد من جوهر الدين ولا من رسالته العليا . وألقى لوثر تبعة هذا الفساد على عاتق البابوات الذين ادعوا لأنفسهم السلطة الدنيوية فى العالم المسيحى أثناء العصور الوسطى مخالفين بذلك آباء المسيحية الأولين الذين كانوا يدعون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ...

ولم يكن مرد ما أحدثه من عظيم الأثر فى ألمانيا ثم فى أوروبا كلها إلى آرائه وحدها ، ولكنه أثر فى الأذهان أعمق الأثر بمسلكه كذلك ؛ بهذه الجرأة البالغة التى خيل إلى الناس أنها أعظم من أن تكون صيحة بشر ؛ فهذا أحد رجال الدين يتحدى البابا ويسخر من الكنيسة ، وكان من يفكر بينه وبين نفسه أن أحد القساوسة يخطىء بله البابا نفسه يأثم بهذا إثما لا يمحوه إلا التوبة والندم !

وكثيرا ما يؤثر العظماء فى الناس بأعمالهم ولو لم يقولوا شيئا فتكون أبلغ من كل مقال ، وهذا لوثر يؤثر بقوله وعمله ، فهو لا يتردد أن يحرق رد البابا على آرائه ويفعل ذلك على أعين الناس ، ثم يقابل قرار البابا بكفرانه وطرده من رحمة الكنيسة ، بكل ما فى وسعه من عدم مبالاة وسخرية ... ويعد عمل لوثر هذا فى الحق فصلا رائعا فى تاريخ حرية الفكر منذ أن بدأ الناس يعشقون حرية الفكر وينادون بحرية الفكر ، وستظل وثبته وقوته وجرأته حديثا عذبا تجرى به الألسن وتبتهج له النفوس كلما اتجه الناس بأذهانهم إلى ذلك الأمل الحلو ، وأعنى به انطلاق الفكر من قيوده ...

عصفت دعوة لوثر بسلطة الكنيسة وزلزلت مكانة القساوسة ومكنت لحرية الفرد أكبر تمكين ، فلكل امرىء الحق أن يفكر فى أمر دينه تفكيرا حرا لا يتقيد فيه بتيد ؛ وكانت ترجمته للانجيل إلى الألمانية فتحا ونورا ، بهر العقول ، وحرك النفوس الجامدة ، وكشف للناس العقيدة الأولى نقية من شوائب الوثنية سليمة من ضلالات الكنيسة .

وما لبثت دعوة الإصلاح أن نهض بها زعماء غير لوثر ، نخص منهم بالذكر كلفن الفرنسى الأصل الذى أحدثت آراؤه من عميق الأثر فى أوروبا كلها ما لم تبلغ إلى مثله آراء لوثر نفسه .

وقد بدأ هذا الداعى دعوته سنة ١٥٣٣ ، وكانت أول خطوة خطاها هى توجيه الطعن إلى كنيسة روما وإظهار معايبها على نحو ما فعل لوثر .

ولئن أثر لوثر بأقدامه وحميته وتحديه وفصاحته ، فلقد أثر كلفن بفلسفته القوية ، ومنطقه الصارم الواضح ، الذى لا عوج فيه ، ثم بمبادئه الخلقية التى استمسك بها ولم يسمح فى تنفيذها بأية هوادة .

آمن كلفن بعقيدة القدر المحتوم ؛ فكل إنسان مقدر عليه أمره من قبل أن يُبرأ ؛ والناس من أجل ذلك فريقان : فريق هدى وفريق حقت عليه الضلالة . وليس يتسنى فى هذا العالم أن نعرف من هم أهل النعيم ومن هم أهل الشقاء ، أعنى لا نستطيع أن نحكم على امرىء أمن الذين شقوا هو أم من الذين سعدوا .

وإذا كان لوثر قد مكن لحرية الفرد وشعوره بذاتيته وكيانه ، فإنه فى الوقت نفسه مكن لسلطة الأمراء ، وذلك لأنه استعان بهم واعتمد عليهم واستغل رغبتهم فى التخلص من سلطان الكنيسة ومطالب الكنيسة . أما كلفن فقد كانت فلسفته ترمى إلى التحرر من كل سلطة استبدادية ، سواء أتمثلت فى الكنيسة أم فى الأباطرة والملوك والأمراء ؛ وكانت نزعته ديموقراطية ترمى إلى الاعتماد على جمهور الناس ، وكان يرى أن القوى هو الله وحده ، وأن الحاكم هو الله وحده ، وأن الذى يخشى هو الله وليس غير الله ؛ فالناس جميعا ملوكهم وسوقتهم أمام قوة الله سواء ، وليس على الأرض من يتمتع بما يسمى حقا إلهيا ، وإنما الحاكمون هم ممثلو إرادة المجموع ، وكان يرى بآرائه هذه إلى تدعيم نظامه الكنسى الذى كان توامه قوما يختارون من عدد من القساوسة وعدد من غير رجال الدين لإدارة الكنائس الكلفية ، فلا سلطة على كنائسه لبابا ولا لأمير .

وثبتت عقيدة الخوف من الله وحده فى نفوس أتباعه عدم الخوف من غيره ، بل والتمرد على كل مستبد من ذوى الطغيان ؛

ولـكن إذا كانت هذه الحرية حقا للفرد ، فعليه فيما يقابلها واجب يتلخص فى اتباع المبادىء الخلقية التى رسمها كلفن ، وكان صارما كل الصرامة فى تنفيذها . وعنده أن الفضائل تطلب لذاتها أولا قبل أن تطلب طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب .

حرم كلفن الخمر والميسر والرقص والخلاعة وأعمال السحر والشعوذة والربا الفاحش وفرض لـكل منها عقوبة صارمة وجعل عقوبة الزنى الموت ، وكانت وظيفة كنائسه إرشاد الناس ومراقبتهم وأخذهم بالشدة إذا فرطوا فى جنب الفضيلة .

شاعت اللوثرية والـكلفنية فى أوروبا ، ثم انتقلت آراؤهما إلى إنجلترة ؛ فـكان أثرها هناك على صورة خاصة توضحها مشاعر الإنجليز وأثر البيئة فى تلك المشاعر .

ونقصد أثر البيئة الطبيعية وما يتصل بها من مؤثرات مناخية ، فما لا شك فيه أن لهذه البيئة فعلها فى تـكوين مزاج أهلها على نحو معين ، ثم يأتى فعل الوراثة متمما لفعل البيئة فتـكون مشاعر الأمة بمرور الزمن وهذه المشاعر هى مزاجها العام .

وكان لبيئة الضباب والسحاب والبرد الشـديد والأعاصير الهوج والغابات الموحشة والبحر المخوف أثرها فى بث نوع من الظلمة العابسة والجد الصارم يشبه أن يكون كآبة فى مشاعر الإنجليز والأمم التيوتونية على العموم ؛ وقر فى مشاعرهم أن صعوبة الحياة وقسوتها ضرب من القدر يقاوم فى شجاعة وتحد ، ويذعن له فى رضى واستسلام ؛ وذلك على خلاف ما كان فى الطرف الجنوبى الشرقى لأوروبا مثلا حيث الشمس والدفء والنور كانت تبث المرح والحيوية فى مشاعر الأغريق ، وتميل بهم إلى متع الحياة ومسراتها .

فلما تحررت العقول نتيجة للنهضة الأوروبية العامة ، لم يكن عجبا أن يتجه الإنجليز بعقولهم المحررة إلى أمور الدين أكثر مما اتجهوا إلى مسائل العلم والفلسفة والفن ، وأحدثت آراء كلفن أثرها العميق فى نفوسهم وعلى الأخص رأيه فى القدر المحتوم الذى لا سبيل قط إلى تغيير حكمه .

وعم تيار النهضة فنمر الحياة العامة وأشاع فيها البهجة والمرح والجمال والزينة ، والرغبة فى الاستمتاع بجمال الحياة ولذاتها ، فكان منه ربيع حافل يتمثل فى العصر الأليزابيثى أو عصر شكسبير

ولـكن الربيع لم يطل ؛ وما ذلك إلا لأنه كان أمرا طارئا على مشاعر الأمة غريبا على مزاجها العام . وما أسرع ما استيقظت تلك المشاعر من حلم العصر الأليزابيثى فـكانت يقظتها هى البيوريتانية وفلسفتها التى أخذت تسيطر على المجتمع الإنجليزى . والفرق بين ما أنتجته العقول فى الأدب والفن فى العصر الأليزابيثى أو عصر شـكسبير وبين ما أنتجته فى العصر البيوريتانى أو عصر ملتن ، يرينا مدى التغير الذى أخذ يطرأ على الحياة بعد حلم النهضة . ولقد لوحظت شواهد ذلك التغير فى فن شـكسبير نفسه فى أخريات أيامه ، ونجد أمثلة لذلك فى روايتيه «العاصفة» و«قصة الشتاء» .

هذه اليقظة من الحلم البهيج الفاتن ، أو هذه الفلسفة التى عادت بمشاعر الأمة إلى طبيعتها هى روح البيوريتانية ، ولـكن رد الفعل كان شديدا ؛ فداخل الحياة الإنجليزية نوع من التزمت الشديد كان أكثر مما تطيق النفوس فى مواطن كثيرة ، والبرهان على ذلك ما شاع فى الأمة من سرور مع الملـكية العائدة بعد زوال عهد كرمويل .

وقد رأينا كيف ظهر البيوريتانز كجماعة أول الأمر حين أصدرت الملـكة إليزابث مرسوم توحيد العبادات عام ١٥٥٩ ، ورأى فريق من رجال الدين أنه كان ينبغى أن يكون الرسوم أكثر تخلصا من مظاهر روما والـكنيسة البابوية ، فهؤلاء هم البيوريتانز . ونستطيع أن نلمح أثر اللوثرية والـكلفنية فى رغبة هذا الفريق فى التخلص من مظاهر الـكنيسة البابوية . ولقد كان لغضبة هنرى الثامن على البابا وفصله كنيسة إنجلترة عن كنيسة روما أثره كذلك فى نفوس هذا الفريق ؛ فلئن كان ذلك الفصل من حيث الرياسة فحسب ، مع بقاء العقيدة الكاثوليكية وطقوسها على ما هى عليه ، إلا أنه زعزع هيبة البابا فى نفوس الإنجليز إلى مدى واسع ، وجعل نزعة الإصـلاح تستند إلى دعوى مشايعة السلطة الحاكمة ضد البابوية .

وأخذ يزداد عدد هؤلاء الذين رغبوا فى التخلص من مظاهر البابوية ، وأخذت تشيع فيهم مبادىء الإصلاح الدينى العام وعلى الأخص آراء كلفن وتعاليمه الخلقية ، فلم ينته القرن السادس عشر حتى كان منهم فئة دينية رأينا كيف سميت باسم البيوريتانز ؛ وأصبح لهذه الفئة نظرة إلى الحياة خاصة بها ، لا فى العقيدة الدينية وحدها ، ولـكن فى السياسة كذلك وآداب المجتمع والأدب والفن ؛ ولما تم لهم السيطرة السياسية استطاعوا أن يأخذوا المجتمع بمبادئهم أخذا قويا لا هوادة فيه ، ولـكنهم غلوا فى تلك المبادىء غلوا كبيرا حتى تجاوزوا ما تطيقه مشاعر الأمة .

(يتبع)

العفيف